التنكيت والتصوير الهزلي

نشرت مجلة « المقتطف » في شهر نوفمبر كلمة شائقة عن المزاح والصور الهزلية فاحببتُ ان أُوافيها بهذه البذة إتماماً للفائدة وتفكهة للقراء

ولما كانت الصورُ الهزلية التي يسميها الفرنجة "Caricature" قليلة الشيوع في صحفنا رأيتُ ان يتناولَ البحثُ ما يُطلقُ عليهِ عندنا اسم « النكتة » لشدَّة العلاقة بين هذين النوعين من المزاح اذ ان الصورة الهزلية ليست في الغالب الأَ نكتةً مصوَّرة

النكتةُ في كتب اللغة المسئلة الدقيقة أُخرجت بدقة نظرٍ واسعان فكرٍ — من نكت رمحهُ بالارض اذا اثَّر فيها — لتأثر الخواطر باستنباطها وقيل لانها توثر في النفس قبضاً وقيل بسطاً . ويقال لها « اللطيفة » اذا كان تأثيرها في النفس حيث تُورث نوعاً من الانبساط . وقيل النكتة من الكلام الجملة المنقَّحة المحذوفة الفضول . ويقال : نكَّت في كلامهِ جاء بالنكت

والنكتة في مصر معروفةٌ مستملحة . وقد اشتهر المصريون بالتنكيت بين أُمم الشرق اشتهار الفرنسويين بهِ بين أُمم الغرب . ولا شك في ان النكتة تدلُّ على خفة روحٍ وتوقُّد ذهن وسرعة خاطر وفطنة غريزية . ولصحفنا الهزلية الاسبوعية طائفةٌ صالحة من النكات المليحة يتناقلها العامة والخاصة

ولقد اوسعت اكبر صحف الغرب مجالاً لهذه اللطائف لانها كثيراً ما تكون في ايجازها أبلغ واشد وقعاً في النفوس من المقالات الضافية يُدبجها فطاحل الكتَّاب فضلاً عما فيها من المفاكهة والمباسطة او الانتقاد المرّ المؤلم

***

ولقد ساعد قلم المصوّرين الهزليين المعروفين باسم « كاريكاتورست » على ابراز هذه النكت بشكلٍ يزيد وقعها في النفس ورونقها في العين . وقد تكون الصورة الهزلية احياناً نكتةً قائمة بنفسها بدون تعليق عليها ولا شرح

والغرض من الصور الهزلية تقرير الحقائق بطريقة لطيفة او تسديد سهام الانتقاد الى بعض العادات او الاشارة الى بعض الحوادث . واساسها المبالغة في اظهار عيوب الخَلْق او الخُلُق وتمثيل الشذوذ للفت النظر الى كل ذلك . ومن براعة واضعي هذه الصور انهم يحفظون فيها شبهاً مميزاً لما يرسمونهُ من الاشخاص او الحوادث يكون بمثابة العلامة الخاصة التي تُساعد على تعرُّف الرسم لاوَّل وهلة . فقد كثرت الصور الهزلية التي تمثل الامبراطور

غليوم مثلاً ولكن لا تكاد تخلو واحدة من شخصين مرتفعين أو خوذة ذات حربة محدَّدة . فتعرف الرسم معها غيَّر الرامز من اسرَّة الوجه . وقس على ذلك الصور الهزلية التي تمثل الملوك والوزراء وكبار الرجال او التي تشير الى حوادث مختلفة

اما الميل الى التصوير الهزلي فهو غريزيٌّ في الانسان . وكلٌّ منا يذكر أنهُ وهو على مقاعد المدرسة كثيراً ما استعمل قلمهُ — حتى قبل ان يحسن الخطَّ — ليرسم احد رفقائهِ او احد اساتذتهِ بطريقة مضحكة وان كانت خالية من كل صنعة كأن يطيل أنفهُ او يوسِّع فمهُ او يُصغِّر عينيهِ او يضع على رأسهِ طربوشاً او قبعةً على شكل معين الى غير ذلك من الالعاب الصبيانية التي ليست بغريبة عن احد

لذلك نرى ان عادة التصوير الهزلي قديمة العهد بين الشعوب . فقد عرفها الاشوريُّون والمصريون واليونان والرومان ولا يزال لدينا بعضٌ من آثارها

وقد نبغ اليونان على الاخص في هذا الفن بين الامم القديمة . وذكر أرسطو في كتاب « السياسة » أنَّ فنون الخيال تنقسم الى ثلاثة اقسام منها ما فيهِ مبالغةٌ الى جانب الخير ومنها ما هو الحقيقة بعينها وهي صورة الامانة المطلقة ومنها ما فيهِ مبالغةٌ الى جانب الشر . وقد شرح هذا الفيلسوف نظريتهُ هذه بذكر المصوِّرين الذين يمثلون الطبيعة أحسن مما هي والذين يمثلونها كما هي والذين يمثلونها أقبح مما هي . وهذه الفئة الاخيرة هي فئة المصوِّرين الانتقاديين او الهزليين . وكثيراً ما صوَّر قدماء اليونان آلهتهم وإلاهاتهم صوراً هي غايةٌ في الترابة والهزء

وشاع هذا الفنُّ ايضاً عند المصريين القدماء . ولا يزال في القسم المصري من متحف « تورينو » بايطاليا قراطيس من البردي تتضمن صوراً هزلية تمثل الاشخاص المعروفين بصور حيوانات او تشير الى الحوادث التاريخية والتقاليد القومية برموز انتقادية مضحكة كاعتقادهم في بعث الاموات ومعاملتهم لأسرى الحرب الى غير ذلك من الامور

وراجت هذه الصور عند الرومان كما يؤخذ من كتابات شيشرون وبلينوس . وكانت تعرف باسم "Comica tabella" اي اللوحات المضحكة . وكثيراً ما عمد اليها المتنازعون على السلطة في اواخر عهد الدولة الرومانية للتشهير بخصومهم ومنازعيهم

وفي كنائس القرون الوسطى صورٌ كثيرة تمثل الزنانية والاباسة والخطايا والشرور وما شابه ذلك بشكل غريب للتأثير في ذهن الناظر اليها

ودخلت الصور الهزلية في القرن الماضي في طور جديد فتناولت موضوعات شتى ونبغ

فيها افرادٌ نالوا شهرة بعيدة ونفوذاً كبيراً . على ان هذه الصور كثيراً ما قادت واضعيها وناشريها الى المحاكم فالسجون وخصوصاً ما كان منها يرمز الى حوادث سياسية او ذات علاقة بالحكومات والقابضين على ازمة الامور . واذا كان الفرنسويون نالوا الاسبقية في التفنن بالتصوير الهزلي فانَّ الانكليز كانوا السابقين الى اطلاق الحرية لمصوّريهم يرسمون ما شاؤوا وكيفما شاؤوا حتى كثيراً ما صوّروا ملوكهم ووزراءهم وكبارهم صوراً انتقادية تمسُّ عن نظر صائب في الامور

ولهذه الصور انصارٌ وخصوم . ولا تخرجُ اقوال الفريقين في هذا الموضوع عمَّا يقال عادةً في إباحة الحرية للصحافة او تقييدها ممَّا لا مجال للتبسُّط فيه

ومهما يكن من الامر فان الغربيين أوسعوا مجالاً فسيحاً للتصوير الهزلي في صحافتهم — حتى الراقية منها — ما عدا النشرات الخاصَّة بهذا الفن دون سواه . والذين يطالعون عندنا صحف الغرب يعرفون الشيء الكثير من ذلك

***

اما في مصر فاذا كانت الصور الهزلية قليلة الشيوع فان الجرائد الهزلية التي تعتمد الى النكتة في الكلام لا في الرسم غير قليلة . نذكر منها : الطائف . والابتسام . والأوغل . والغزالة . والحاره . والفيل . والارنب . والشيطان . والخلاعة . والشجاعة والسيف والمسامير . واذا كانت هذه الجرائد قد طويت صفحة معظمها الآن فان منها ما لاقى رواجاً في عصره لم تلاقيه اكبر جرائدنا . وعلى اثر اعلان الدستور صدر في بيروت جريدة من هذا النوع اسمها « خط بالخرج » ولكنها لم تعمّر طويلاً

ويظهر ان الصور الهزلية اخذت تلاقي بعض الاقبال في مصر . فانا لاحظنا منذ مدة في شارع قصر النيل محلاً جديداً كُتب فوق مدخله بحروف كبيرة "Caricature in five minutes" اي صور هزلية في خمس دقائق فالقينا نظرةً على الواجهة فاذا بالصور المعروضة تمثل شخاصاً من الاجانب النازلين في مصر ولم نشاهد الاَّ الشيء القليل من الصور المصرية

***

ونرى ان نختم هذه المقالة بوصف بعض الصور الهزلية التي كان لها شأنٌ من هذا القبيل نتيجةً لما نشره المقتطف في هذا الباب على سبيل الفكاهة :

رسم احدُ المصوّرين رجلاً سكّيراً وقد لعبت برأسهِ بنتُ الحان فالقتهُ على الحضيض وكتب تحت الصورة عن لسان ذلك الرجل :

« يقولون إنّ كأساً من الخمر تُثبّتُ القدَم وها قد تناولتُ عشرين كأساً وما انا بالقادر على الوقوف ! »

واراد مصوّرٌ ان يهزأ بالذين صرفوا همّهم للعناية بالحيوانات فألّفوا لها الجمعيات ووقفوا عليها الاموال الطائلة فرسم رجلاً امام مخبز يشتري كعكاً لكلبهِ السمين . ورسم الى جانبهِ فقيراً متسوّلاً هازل الجسم يقول لصاحب الكلب « حسنةً يا سيدي اجعلْ لي نصيباً من حنانك على كلبك » والرجل يجيب الفقير « اليك عني ! فليس لهذا الحيوان غيري . اما انتَ فلك جميعُ الناس »

ورسم غيرهُ احد المضاربين في البورصة جالساً يفكّر وهو يقول : « لقد وجدتُ سرّاً للاثراء عاجلاً . فسأشتري كلّ ذنَبٍ معروضة للبيع بما تساوي ثم ابيعها بالثمن الذي يحسّنهُ صاحبها »

ومن الصور المشهورة صورة تتضمن عظةً بليغةً نشرتها احدى الجميات العاملة على مقاومة البغاء في فرنسا وهي صورةُ امرأةٍ من بنات الهوى اخنى عليها الدهر — كما يخني على اترابها — فباتت تتكفّف في الشوارع . وقف امامها رجلٌ تقدما بعض درجات فدعت لهُ احسن دعاء وهو : « اسألُ الله ان يقي ابناءك من شرّ بناتي ! »

ونشرت مجلة « بنش » الهزليّة في لندن صورةً نالت شهرةً بعيدةً عنوانها « اصعد للصلاة ! » وفيها اشارةٌ الى حكايةٍ لطيفةٍ متداولة عند القوم تمثّل الذين يتمسكون بظاهر الدين ولا يطبّقون اعمالهم على روحهِ . وخلاصتها ان « بقّالاً » سأل خادمهُ : « هل اضفتَ الى السمن شحماً ؟

— نعم !

— وهل رششت التبغ بالماء كما يريد مولاه ؟

— نعم !

— وهل خلطت دقيق القمح بما يلزم من دقيق الذرة والبطاطس ؟

— نعم ! » الخ

فقال البقال : « حسناً ! فهيّا الى الصلاة ! »

أمّا الصورة التي تشير الى هذه الحكاية فانها تمثّل ملك رومية يقول لوزيره بسمرك :

— هل ضممت « دوقيات الالب » الى بلادنا ؟

— نعم !

— وهل اغتصبت مقاطعة « سس » ؟

— نعم !

— وهل نجحت في الاعتداء على حقوق جارنا ملك « هانوفر » ؟

— نعم . تمّ كلّ ذلك باذن الله ! »

— فاصعد إذن للصلاة يا خادمي الامين »

وكان احد الملوك قد ادّعى انّ لهُ وحدهُ حقّ وضع الضرائب وتقريرها وليس لنوّاب الشعب إلاّ إبداء الرأي في كيفية جبايتها فتناول احد المصوّرين الهزليين هذا الموضوع فصوّر ذلاّحاً بين طيوره الداجنة وهو يقول : « بأيّ نوع من المرق تريدون ان تؤكلوا ؟ » فانبرى لهُ ديك وقال « قبل كلّ شيء نحن لا نريد ان نؤكل » فاجاب الفلاّح متململاً « لا تخرجوا عن الموضوع . نحن لا نبحث فيما اذا كنتم تريدون ان تؤكلوا ام لا . بل في نوع المرق الذي تحبون ان تطبخوا فيه . »

وكثيراً ما وردت هذه الصور لتقرير الحقائق او للانتقاد على السنة الحيوانات . نذكر من ذلك صورتين :

الاولى تمثّل كلبين — كلباً اسود وكلباً ابيض — والواحد يستنجد الآخر وهذا يجيبهُ : لا تخف يا اخي فاذا كنتَ اسود وانا ابيض فما خرجنا عن كوننا كلبين . الانسان وحدهُ — ذلك الحيوان العاقل — يجعل ميزةً للالوان . اما نحن معشر الحيوانات غير الناطقة فلا نعرف هذا الفرق ! »

والثانية تمثّل ذئاباً تنهش خروفاً واحدها يقول « يسمّينا الانسان وحوشاً لاننا ناكل اللحم نيئاً وهو يأكلهُ مطبوخاً . ولعمر الحق ليس الفرق بكبير »

ولم تخلُ النساء من سهام المصوّرين الهزليين . فقد صوّر بعضهم رجلاً حمل امرأتهُ على كتفيه وقد خيط على ثوبها ورقةٌ كُتب فيها « المطلوب لهذان ثمن القشة ومخرّمات ٢٠٠٠ فرنك » وورقة أخرى كُتب فيها « المطلوب للخياطة ٠٠٠ فرنك » الخ . وقد تاه الرجل بحملهِ وهو يقول « انّ المرأة الخفيفة ثقيلة جدّاً » . ولا يخفى ما في ذلك من التلاعب في معنى الخفيف الحمل والخفيف العقل

ومن هذا القبيل صورة تمثل اثنين من الحفّارين الذين يتولون دفن الموتى وهما

يتحدثان قرب قبر امرأة عرفت في حياتها بالنطيش واللهو واحدهما يقول : سمعت ان المرحومة كانت « خفيفة » فاجاب الثاني : والله لو كان الذين يشيعون عنها ذلك قد حاولوا نقلها من عربة الموتى مثلنا لغيّروا رأيهم فيها »

ولما كانت الحرب اليوم الشغل الشاغل للجميع فقد اصبحت هي ورجالها ووقائعها اكبر موضوع لتبارى فيه قرائح المصورين المزليين . وها نحن ذاكرون بعض الشيء من ذلك

عرف القراء ان المانيا في اشد حاجة الى النحاس . وقد بينت احدى المجلات المصورة هذه الحاجة بشكل لطيف فصورت في معسكر الالمان بعض اسرى الهنود الاميركيين — بلونهم الاحمر « النحاسي » المعروف — وصورت امامهم ضابطاً المانياً يقول لاحد اتباعه : « يجب ان تضعوا هؤلاء الاسرى على النار وتحللوا اجسامهم لعلنا نستخرج منها شيئاً من النحاس الذي يعوض حاجتنا الى هذا المعدن »

وقد ابلى عساكر « الزواف » الفرنسويون بلاء حسناً في القتال فنشرت احدى الصحف صورة جندي منهم وقد شواه الالمان لياكلوه فوجدوا احد الآكلين قد وجد الى جنب الجندي سيفه فقال لرفقائه « ان هذه السمكة لا تخلو من حسك قد يكون والله نجّى في حلوقنا » . وهذه النكتة تذكرنا قول امرىء القيس :

أبتناي والمشرفيّ مضاجعي ومسنونة زرق كأنياب اغوالِ

انبأتنا الصحف كيفية معيشة الجنود في الخنادق وطرقهم في الدفاع والقتال . وقد صوّرت احدى الصحف — على اثر افتتاح مجلس النواب في باريس — جنوداً من الفرنسويين يسيرون زحفاً على بطونهم واحدهم يقول لرفقائه : بينما نحن زاحفون على بطوننا الآن يتبجح خطباؤنا من اعلى المنبر في المجلس قائلين اننا كنا « واقفون » للدفاع عن الوطن

وصورت جريدة اخرى جندياً خلع جوربيه ووضع قدميه في الماء الراكد في خندق فقال له جندي آخر اغسل رجليك في الماء الذي تشربه فاجابه كلا بل انا عازم ان اشتم فيه

ظلت احدى الدول مدة ساكتة خطة التردد والتقلب فتارة تفاوض الالمان والنمسويين في بقائها على الحياد وتارة تباحث الحلفاء في ما تناله من الغنم مقابل خوضها غمرات القتال حتى سئم الناس الانتظار وملوا هذه السياسة — سياسة إمساك الحبل من الطرفين . فتناول احد المصورين المزليين هذا الموضوع ورمز الى الدولة المعنية بفتاة حسناء وقد مدّت يدها الواحدة الى الالمان والثانية الى الحلفاء وكتب تحت الصورة آية الانجيل : « لا تعرّف شمالك ما تفعل يمينك »

نسب الكثيرون الى عليوم الثاني الرغبة الشديدة في التشبُّه بنابوليون الكبير فاتحاً وغازياً دون الوصول الى مقامهِ . فاخذت احدى الصحف المزلية هذه الفكرة وصورت امبراطور الالمان لابساً قبعة نابوليون المعروفة وقد نزلت الى تحت أُذنيهِ وهو يقول لمستشارهِ الواقف بقربهِ :

— « اظنُّ ان هذه القبعة كبيرة على رأسي » والمستشار يجيب :

— « بل اظنُّ ان رأس جلالتك صغيرٌ على هذه القبعة ... ! »

والنكات من هذا القبيل كثيرةٌ لا تحصى نكتفي منها بما ذكرنا ونتمنَّى على صحفنا ومجلاتنا الكبيرة ان تفسح في صفحاتها مجالاً لهذا النوع من النقد فانهُ يتضمَّن الجدَّ في معرض الهزل وكثيراً ما يجمع العظة والعبرة الى الفكاهة والنكتة

القاهرة انطون الجميّل

مصر منذ تسعين سنة

(١٢)

حادثة غريبة

بقي الارمني ملازماً الجارية زينب يروي لها القصص والحكايات وكان بين الجيرة بحريٌّ تركي من الاناضول يدعى « حاجي » لحيتهُ حمراء طويلة يجلس مع الارمني ويكلم الجارية من حين لآخر فسألت هذا عن موضوع حديث التركي معها فقال انهُ يعلمها فروض الدين والصلاة وانهُ من المحسنين حجَّ مراراً الى مكة . فلم أرَ بأساً من ان تتعلم فروض دينها واخيراً سمعت هذا الحاج يكرر في حديثهِ كلمتي مسلم ونصراني فسألت الارمني عن ذلك فأجاب : يقول لها انهُ لا يجوز ان يشتري رجل مسيحي امرأة مسلمة . قلت ولكن ذلك جائز في مصر وكل الافرنج والمسيحيين يقتنون العبيد والجواري . قال نعم يجوز لهم (حسب قولهِ) ان يشتروا الحبشيات المسيحيات والزنجيات الوثنيات لا المسلمات

فاستأت من ذلك وخشيت من نتيجة هذا الحديث فرحتُ اقلق راحتي وعيشتي مع جاريتي فلم اشأ ان يعبث هذا التركي بمزاجها ويثير فيها ثائرة العناد والعصيان فذهبت الى القبطان وشكوت اليهِ أمري ورجوت ان يمنع هذا البحري من الكلام مع الجارية . فقال لي لا سبيل الى منعهِ ولكن في وسعك ان تمنع جاريتك عن الكلام معهُ فذهبت الى الجارية وانهيتها